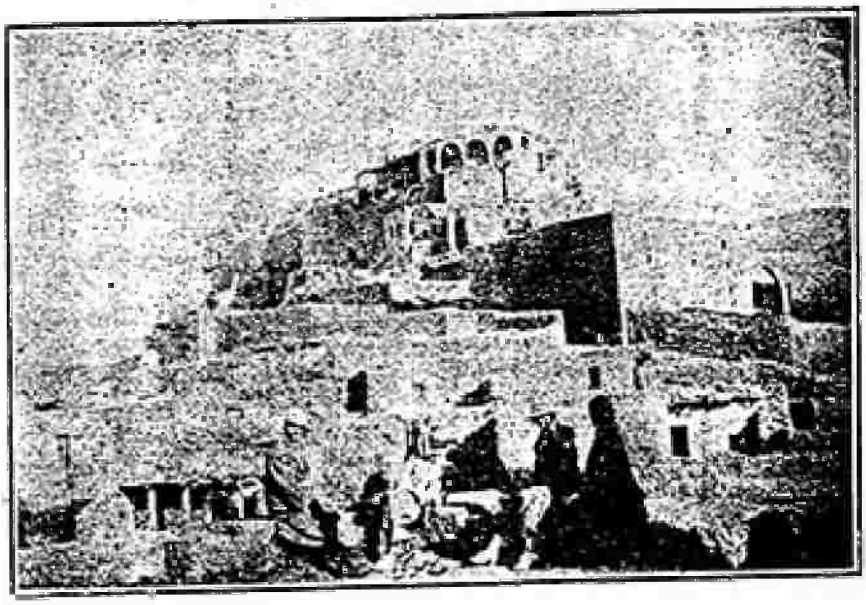

صيدنايا

من دمشق الى صيدنايا

لحضرة المؤرخ المدقق والبحاثة المحقق الاستاذ
عيسى اسكندر افندي معلوف بدمشق

أكتب هذه المقالة (للاخاء) بمناسبة حفلة جر المياه الى دير صيدنايا المشهور والى القرية بعناية غبطة العلامة البطريرك غريغوريوس الحداد الارثوذكسي ولجنة جر المياه ورئيسة الدير وقد شيدها أرباب الحكومة والاعيان فكان مهرجاناً عظيماً فيها تكلم غبطته وغيره وشكر القوم ما لقوا من الحفاوة وكان ذلك يوم الاحد في ٢٢ ايلول و ت ١ سنة ١٩٢٤ م :

وصف الطريق

خرجت المواكب بسياراتها وعرباتها وعلى خيولها من دمشق سائرة في

القصاع (١) عابرة على جسر نهر نورا (٢) إلى القابون (٣) وبرزه (٤) ودخلت وادي حلبون (٥) الخصيب والاشجار الظليلة تكتنفه

والمياه الغزيرة تترقرق على صخوره الشاهقة البديعة المناظر بين رنق وانجاد من الحجر الابيض . فكنا إلى يسارة قرية معرابا (٦) على رابية جميلة ثم بعد قليل اشرفنا على قرية تل منين (٧) وسرنا في حدائقها النضرة وإلى يسارنا قرية

---

(١) يسمى قديماً محلة (القصاعين) حيث كانت تعمل القصاع الخشبية

(٢) قيل باسم حكيم دعي (نورا) وقيل نسبته الى تاج الملك نوري زوج زمرد خاتون ام شمس الملوك المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) والاولى الكلمة يونانية بمعنى النظر لعلوه واشرافه على ما دونه

(٣) اما تحريف (آبون) السريانية أي (أبونا) لدير قديم فيها أو تحريف كوريون اليونانية بمعنى (الدير) واليها ينسب صلاح الدين الطبيب المعروف بالكحال القابوني الدمشقي المتوفي سنة ٩٣٢ هـ وبرهان الدين المقدسي المعروف بابن البيكار المتوفى سنة ٩٥٧ هـ وغيرهما . وهما ثابون النوقاني والتحتاني واليه ينسب الخيار

(٤) اما عربية أو تحريف برازيوس اليونانية بمعنى الفردوس ويرجح العلماء انها سوبة بمعنى مكمن حيث ذهب ابراهيم الخليل اليها عند ما تبعه الملوك التحتانيون وهي من متنزهات دمشق وفيها مقام ابراهيم (عم) واليها ينسب اثنين واليها نسب بعض العلماء منهم محمد بن علي القنوي سنة ٤١٥ هـ وعبد العزيز البرزي السيرقي المتوفى سنة ٤٦٢ وعبد الله الخشني المتوفى سنة ٤٦٦ وغيرهم

(٥) نسبة الى بلدة حلبون بمعنى الخصيبة وهي في آخر الوادي مشهورة بخمرها كما في سفر حزقيال وحولها آثار قبور يونانية وكتابات ومتنزهات منها دير الصاعب الشهورة ووادي النقاع وقيل انها تحريف (خليقون) بمعنى منعم الدولاب في اليونانية

(٦) سريانية بمعنى الغرب

(٧) لم يفرق القدماء بين منين وتل منين وهما متجاوران ولعل الكلمة سريانية بمعنى (المعدودة) أو (الاقسام) او انها مركبة من (من) بمعنى كبير و (تبا) زحل الكلداني فمعناها (زحل الكبير) هيكل كان له فيها الويكون النظر الاول (مبي) بمعنى الحر فتكون بمعنى (اله الحر) أي باخوس ملوءة عنبا . واليها ينسب الفوز النبي لرقة قصره وبياض قلبه . وفيها مياه غزيرة جرى منها قديما الى الصالحية الخليفة المأمون أيام عسكر بدير مران في سفح جبل قاسيون (الصالحية) . وفيها مدفن السيد بن الشيخ جندل بن محمد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ والشيخ ابي الرجال عبد الرحمن بن مرة وفيها نشأ الشيخ ابو بكر محمد بن رزق الله المعروف بابن ابي عمر والاسعرد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ . واليها ينسب بنو المنيني في دمشق واصلهم الشيخ علي من قرية برقيل قرب طرابلس الشام قدم منين واتخذ فيها مدة وجاء أولاده الى دمشق فقصدوا الى منين ونشأ منهم علماء افاضل اهمهم الشهاب احمد شارح تاريخ التنبي

حرفه واهل القريتين اقوام دميمو المنظر وصعدنا في الجانب الايمن من الوادي والمناظر الطبيعية تسبي العقول حتى عجنا بقرية متين (١) على مرتفع جيد الموقع طيب الهواء ومن هناك أخذنا نعول الجبل المسمى بجبل القلمون أو المناخ وهو القلمون الاسفل فما صعدنا على مشارفه حتى كان عن يميننا خربة قرية قديمة تسمى (قوز عايا) في اعلاها صخور منضودة عمودياً كأنها حصن منيع . وعلى يسارنا في سفح الجبل قريا (تلفيتا) (٢) . وعلى بعد في الشرق فوق رابية دير صيدنايا والى جنوبيه في السهل تحته قرية المغرة أي مغرة صيدنايا (٣) بمعنى المغارة ووراءها في منقلب الجبل الجنوبي قرية مقرونة بمعنى المغارة الصغيرة وفي تلك الضواحي على الطريق القديمة والحديثة اخربة واطلال كثيرة وكلها كانت ولا تزال مصايف للدمشقيين وغيرهم منها القصير

وبعد ساعة ونصف من قيامنا من مدينة دمشق وصلنا الى قرية صيدنايا الجميلة الموقع وسرنا في درج صخري قديم صعداً حتى دخلنا في باب حجري صغير الدير حيث اقيمت الحفلة بكل مظاهر الحفاوة والتكريم

ولقد تذكرت قول ابن العفيف التلمساني :

يا حبذا نهر القصير ومعربا ونسيم هاتيك المعالم والربى
وسقى زماناً كان لي في ظلها ما كان أعذبه لدي وأطيبا

وقول بعضهم من قصيدة تكاد تكون ملحمة يطوفنا في دمشق وضواحيها ومعالمها ومتنزهاتها منها :

وأشرف الوديان وادي برزه فيه بقاع الفضل حتى ارزه

---

(١) يسمى جبل سنير عند العبرانيين والاسم الثاني يوناني وهو قسمان القلمون الاعلى وهو بعيد عن هذا . والقلمون الاسفل والمراد هنا ما عندناه وما بعده ومنها صيدنايا . وعدد قرى المقاطعة كلها نحو مئتين الف نسمة من مسلمين ومسيحيين . وهو من الدريج قرب حليون الى البريج قرب قارة

(٢) مرتلية بمعنى (تل الفهد) لكثرة غابتها القديمة (٣) تمييزاً لها عن مغرة معربين ومغرة الكمان وغيرهما

لحرنة واد ووادي معربا كلاهما عن حسنه قد أعربا
ووادي (١) التل الرفيع القدر يصوغ نشراً من عبير الزهر
وادي منين انضر الوديان أطياره تشدو على العيدان
وادي الشريج الطيب الارواح قد غص بالامواه والارواح
ووادي (٢) حلبون سقاه القطر على غناء الطير فاح العطر
واجلُ صدى قلبي بعين منين بين الربى والتين والزيتون
وعند ثوراها يثور الوجد غذاؤه القيصوم ثم الرند
ونهر ثورا فسموه فاسمع ، نظماً حلا في الذهن ثم المسمع

وقول ابن نباتي في مناظره ابن الحجاج موريّاً :

حكى نهرين ما في الار ض من يحكيهما أبداً
ففي افعاله (ثورا) وفي الفاظه (بَرَدا)

وقول عبد الرحمن المنيني الدمشقي في متنزه عين الصاحب :

لما وقفنا للوداع عشية ما بين مسلوب الفؤاد وسالب
وجرت من الشوق المبرح ادمعي رق الحبيب لماء عين الصاحب

وقول يوسف السقيفي الدمشقي من قصيدة في وادي التل :

اقنا بوادي التل نستجلب البسطا بحيث دنا منا السرور وما شطا
وقد ضربت اوتار اغصانه لنا ستائر اذ مدت خمائله بسطا
يباري به الورق الهزار كراهب يحاكي بعبراني الفاظه القبطا
ويعطف ما بين الغصون نسيمه كما اجتمع الالفان من بعد ما شطا
ويملي أحاديث الغرام لحوضه فيرويه لكن ربما نسيت شرطا

فعاينا الدير وغرفه ورأينا توزيع المياه عليه بأنابيب وحياض جميلة واستشرفنا من سطوحه السهول والروابي المحدقة به وشاهدنا الى الشرق قرية (بدّا) وغياضها

(١) حرك الياء للضرورة (٢) أثبت الياء من وادي للضرورة

الجميلة ورأينا بستان الدير الكبير وكرومه وأراضيه المنفسحة وشبهت الحفلة فكتبت هذه الكلمة في تاريخه

اسم صيدنايا

ربما كانت من (صيدون) وهو اله الصيد عند الفينيقيين فملكل كان محل هذا الدير أو على شرفة أخرى لهذا الاله ومعنى الكلمة (الصيد) وذلك لكثرة غابات تلك البقعة قديماً و(أيا) علامة الجمع بالسريانية وذكرها الزعيمي باسم مدينة (ديانا) أي الهة الصيد وقد تؤدي الكلمة معنى (الاودية) و (المستشفى) . وكلا من معانيها فهي اسم على مسمى لما هنالك من الاودية وطيب الهواء وجودة المناخ وكثرة الغابات

ويروى ان الكلمة سريانية بمعنى (سيدتنا) وبعضهم يؤولها بمعنى (سيدة) العربية و (نايا) اليونانية بمعنى الجديدة أي السيدة الجديدة (١) . ولهم تقاليد في نقل ايقونة السيدة الى هذا الدير لا محل الآن لسردها

قرية صيدنايا

وهي من جبل القلمون الاسفل تبعد عن معلولا من جبل القلمون الاعلى نحو ست ساعات بالعربة وبينهما كهوف ومغاور قديمة وآثار ابنية متهدمة وكنائس واديار . وفي صيدنايا آبار رومانية ومدافن وبقايا أعمدة ضخمة على بعضها كتابات يونانية احداها نقشت سنة ١٩٨ م ومما يقرأ في آثارها اسماء تموز ارتميدورس . وامرأة بريسخا . وبوليوس . وفيليبكوس . ودومينا . وديمتريوس . وارياذنا . وغيرها وبعض هذه الكتابات على الصخر الذي بنيت عليه كنيسة الشاغورة أي العالية أو الشاهورة أي الشهيرة

وكانت هذه القرية في القديم مدينة حصينة الموقع كثيرة الآثار لا تزال اطلال بروجها وحصونها تدل على عظمتها منها البرج المربع في القرية وهو المعروف

(١) وفي قرية كفر شلياي بشمالي لبنان معبد صغير مذكور بصخر يدعى (سيدة نايا) وفيه كتابة يونانية كما ذكر الاب لامنس في (تسريح الابصار)

بكنيسة التوبة كما سترى . وكذلك فيها بقايا اعمدة وحجارة ضخمة .

وكانت مقر اسقفية باقية الآن باسم (صيدنايا ومعلولا وزحلة) عند الارثوذكسيين (١) وقد اندغمت فيها اسقفيات كثيرة قديمة مثل الزبداني وبعلبك والبقاع وقاره وبيرود فصارت كلها بهذا الاسم الآن وهي مؤلفة من اقضية كثيرة أيضاً مثل القنيطرة ودوما والزبداني وبعلبك والبقاع ولبنان وقراها نحو اربعين وكنائسها ست وثلاثون . ونقل مقر اساقفتها منها الى معلولا (سلفكية الشام) ثم على أثر موقعة الحرافشة وقتل اسقفها زخريا سنة ١٨٥٠ م نقلت الى زحلة وبقيت فيها الى يومنا

وسكانها القدماء من السريان لأنهم انتشروا في القلمونين ودمشق وضواحيها وكانوا يتكلمون بالسريانية وفي قرى بخعه وعين التينة ومعلولا بقية منهم يتكلمون الى يومنا بالسريانية الممزجة بالعربية والتركية وقد امتزجوا ببعض اليونان والعرب ممن جاءوا اليها مع البطاركة والاساقفة وحوادث حوران فألفوا سكانها الحاليين وهم من طبقة متوسطة يحرثون الارض ويستغلون الكروم والتين وغيرها فيعيشون عيشة بسيطة وبعضهم هاجروا فأثروا وفيها أسر مختلفة الاسماء والاصول نشأ من بعضها بطاركة واساقفة ورؤساء الدين وكهنة ووجهاء

وبيوت القرية على الطرز القديم وقليل منها بني حديثاً على طرز حديث وهي قرية عامرة تحدق بالدير المرتفع على شرفها الصخرية كأنها نصف دائرة . أو كأنها هلال يحدق بالكوكب .

وسكانها الآن بحسب طوائفهم هو على التقريب :

الارثوذكس ١٦٠٠ والكاثوليك ٨٠٠ والمسلمون ١٠٠ فمجموعهم الفان وخمس مائة نسمة

---

(١) اخطأت مجلة المشرق الغراء (٤ : ١٤٣) اذ قالت : « أن الروم الارثوذكس ليس له اسقف مقيم في صيدنايا بل لم نجد بينهم من يعرف بمطران صيدنايا » اما صيدنايا الكاثوليكية فتتبع اسقفية حمص وحماه وبيرود للروم الكاثوليك

دير صيدنايا الكبير

اختلف المؤرخون في باني هذا الدير او محوّله من هيكل وثني الى كنيسة مسيحية فقيل بنته افدوكسيا زوجة الامبراطور ثيودوسيوس الثاني حينما زارت القدس الشريف سنة ٤٣٨ م ثم اعتزلت في محل الدير سنة ٤٤٠ م لخلاف بينها وبين زوجها ومانت سنة ٤٦٠ م ونعلها هي التي اهدت الايقونة المشهورة الى الدير كما اهدت مثلها الى القديسة بوليخرينه اخت زوجها وقيل انها كانت صورة العذراء مريم المرسومة بيد البشير لوقا (١)

وقيل بناه الملك يوستنيانوس الذي زار الاماكن المقدسة سنة ٥٣٦ م وكان يصطاد الغزلان في غابات صيدنايا الغبياء فأعجبه موقعه وحدث له ما حمله على بناء الدير على ذلك الصخر حتى يقال انه بعد رجوعه الى مملكته خصه بمرتب سنوي من خزينة الملكية . ثم حول ذلك المرتب الى أوقاف ذات ريع تنفق على الدير . وجر أيضاً اليه المياه من الينبوع الاصلي فعمر الدير وترقت القرية بأيامه . وكانت شقيقته أول رئيسة لهذا الدير المشيد للناسكات واقاسك كل منهما بمعزل عن الآخر

وقال المؤرخون ان اعظم الكنائس في الشرق ثلاثة : كنيسة صيدنايا وكنيسة بيت لحم وكنيسة طور سيناء وكلها على هندسة واحدة وطراز جميل

ومما يؤثر أن كثيراً من الغزاة ولا سيما التتر لم يخربوا هذا الدير بل احترموه وحافظوا عليه . وان نفراً غير قليل من السياح زاروه ووصفوه برحلاتهم وذكروا اخباره بتفصيل واشاروا إلى خزانة كتبه الثمينة وذكر مراراً باسم (حصن صيدنايا) . ولقد كان منذ تأسيسه ملجأ للبطاركة والاساقفة والكهنة والرهبان والراهبات ونشأ فيه كثيرات وكثيرون من الانقياء والصلاح الذين ارتقوا في الدرجات العليا الكهنوتية

ولكن الجوائح الطبيعية والزلازل هدمته مراراً فرمم وغيرت هندسته إلى

(١) رسم هذا البشير أربع صور للعذراء احداها في رومية والثانية في البندقية والثالثة في . والرابعة في صيدنايا وهي هذه

أن صار على ما هو عليه اليوم . فكله مشيد على صخر شاهق في شمالي القرية وهندسته تابعة لتعاريج الصخر بديعة الاتقان يتبع الآن البطريركية الارثوذكسية والقرية تتبع الاسقفية . وهو متصل من الجنوب بادراج حفرت قديماً في الصخر حيث مداخله وارتفعت ابنيته في الجهات الاخرى الثلاث حتى صار حصناً حصيناً ومعقلاً منيعاً يرد الغارات ويدفع الطامعين

وكنيسة الدير قائمة في الدير وكان فيها عشرون عموداً لم يبق منها الآن الا بضع أعمدة وقد رممت بعد سنة ١٨٦٠ م ومهندس الرمية هو الذي خططها بزمن الطيب الذكر البطريرك ايروثيوس (١٨٥١ — ١٨٨٥ م) وهي كبيرة جميلة الهندسة مزينة بالايقونات

وكنيسة الشاغورة الشهيرة كان يدخل اليها من الهيكل وأما الآن فيدخل اليها من الخارج بزقاق إلى جنوبي الكنيسة والشاغورة شرقيها وفيها صورة البتول موضوعة في النافذة الشرقية يحدق بها مشبك(١) من الفضة وامامها القناديل المعلقة . وحولها ايقونات منها في الشمال واحدة صور فيها السيد المسيح ووالدته العذراء والسابق يوحنا المعمدان وبجانبه صورة الملك الظاهر بيبرس البندقداري (٢) بقرونه الخضراء وعمامته . وذلك تذكار مرضه بهذا الدير وشفائه فيه كما يتناقل الناس الخبر الى الآن

وهذه الكنيسة لا تخلو من الزوار من جميع الطوائف ينامون فيها ويصلون ويتضرعون لتفتهم بها منذ القديم

وفي الدير نحو اربعين راهبة تترأسهن اليوم الحاجة مريم سمرا الدمشقية المشهورة بالتقوى والغيرة والفضل وكلهن متعبدات فيه متبتلات يصرفن أوقاتهن بالاصوام والصلوات وبعض الاشغال اليدوية (للكلام بقية)

(١) عمل هذا المشبك الملم أو الشيخ جرجس بن سعود (وقيل سعورو) عميد الطائفة الارثوذكسية في القرن السادس عشر وقد رأيت اسمه في مخطوطات كثيرة وذكر سنة ١٥٩٤ م مراراً (٢) وذكر أحمد مؤرخي الافرنج ان السلطان سيف الدين ابا بكر بن أيوب المعروف بالملك العادل اخا صلاح الدين الايوبي الشهير هو الذي مرض في الدير وشفي في الشاغورة فصور بذلك الايقونة . وكان يرسل الى الدير في كل سنة خمسين كيلة من الزيت